العمل من وجه واحد عند سيبويه

وقانون الجهد الأقل في علم الأصوات الحديث

Sibawayh's idea of the one aspect versus the principal of least effort in modern phonology

استاذ مشارك: د. مي فاضل جاسم الجبوري

Asso.Prof. Dr. May Fadil Jassim Al-Juburi

جامعة أم القرى/ كلية اللغة العربية وآدابها

Umm Al-Qura University \ College of Arabic Language and literature

E-mail: mfjubueri@uqu.edu.sa

الكلمات المفتاحية: سيبويه، قانون الجهد الأقل، العمل من وجه واحد.

Keywords: Sibawayh, law of least effort.

الملخص

يتناول هذا البحث معرفة ســـيبويه فكرة العمل من وجه واحد في الدرس الصـــوتي للغة العربية، لتوثيق نسبة الفكرة إليه ولشيخه الخليل إذ عرفها الغرب بقانون الجهد الأقل بعدهما بأكثر من ألف عام، وقد ذكر مرات متعددة في الكتاب لتعليل ظواهر صوتية عربية.

Abstract

This research deals with Sibawayh's idea of working from one aspect in Arabic language phonology, to document the attribution of the idea to him and his Sheikh Al-Khalil, as the West defined it as the law of least effort more than one thousand years after. It is mentioned multiple times his book has explained the Arabic phonetic phenomena.

مقدمة:

يتكرر في كتاب ســـيبويه تعبير (العمل من وجه واحد) ونســـب في أول ظهور له في الكتاب إلى الخليل[١]، وقد ظهر مقرونًا بموضوع التخفف في كل المواضع الصوتية، وهي مواضع تدخل في قضية التعامل الصوتي وتوجُه المتكلم فيه، كما أن التخفف المذكور فيها يمكن إدخاله فيما يسمى بقانون الجهد الأقل من ناحية مماثلة الأصوات للعمل من وجه واحد كما سيظهر من خلال استعراضها في البحث.

أهمية الموضوع تكمن في جانبين: الأول معرفة فكرة سيبويه في موضوع العمل من وجه واحد وهو صاحب أقدم كتاب وصل إلينا يدرس هذا الموضوع الصوتي في اللغة العربية، والجانب الثاني توثيق نسبة الفكرة له وللخليل إذ عرفها الغرب بقانون الجهد الأقل (في اللغة) بعدهما بأكثر من ألف عام ثم توسع ليشمل حقولاً أخرى غير اللغة أيضًا.

قانون الجهد الأقل: Principle of least effort [Zipf's Law]

ويسمى أيضا بقانون زبف، منطوقه: أن هناك مبدأً واحدًا أساسيًّا في عمل أي إنسان هو إنفاق أقل قدر من الجهد لإنجاز مهمة، بما في ذلك الاتصال اللفظي[٢]، اقترحه عالم اللغويات في جامعة هارفرد جورج كينغسـلي زبف عام ١٩٤٩. وقد اسـتعمل – فضـلا عن الجانب اللغوي – في حقول علميـة كثيرة ومنهـا: علم النفس، وعلم الاجتمـاع، والاقتصـــاد، والتســـويق، وعلم المعلومات.

يمثل قانون زبف أو قانون الجهد الأقل واحدًا من التفســـيرات للتغيرات التي تحدث في اللغة لأن المتكلمين يختصرون وييسرون كلامهم بأساليب متعددة.

في رسالة الدكتوراه للباحثة البولندية (مالجورزاتا كول) الموسومة ب

The principle of least effort within the hierarchy of linguistic preferences: external evidence from English - Malgorzata Kul

(مبدأ أقل جهد في التسـلسـل الهرمي للتفضـيلات اللغوية) التي درسـت اللغة الانجليزية واسـتخرجت هذه التفضـيلات، تُذكر المماثلة الصـوتية في مواضـع كثيرة على أنها من المواضـع التي يلجأ المتحدث إليها لبذل جهد أقل فيتمثل فيها قانون زبف، ومن ذلك قول الباحثة: " في اللغة الانجليزية يتجلى التفضـيل المفصـل للتشـابه في جميع أنواع عمليات المماثلة (على سـبيل المثال: /bæd g3 rl/ bad girl تصـبح /bæg g3 rl/) "[٣] فنلاحظ إدغام /d/ من bad في /g/ من girl فتصـبح baggirl بدلًا من bad girl ، وهذا على أسـاس تفضـيل المتكلم لبذل جهد أقل بطرح صـوت /d/ وتكرار صـوت /g/ من موضـع واحد الداخل في قانون الجهد الأقل في المماثلة.

ومن ذلك أمثلة كثيرة مشابهة في الإدغام وغيره في كتاب سيبويه ذكرها للتخفف وفكرتها اللجوء إلى بذل جهد أقل، عُرفت في دراسته للغة العرب ونقلها علماء العربية من بعده، فقد نقل ابن منظور في اللسان:

"وَحَكَى سِيبَوَيْهِ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ هُوَ يَجِيكَ بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ"[٤] فهذا الحذف في كلام العربي للسهولة والتخفف، ونستطيع أن نتأمل الموضع بكتابته صوتيًّا فيتضح الفرق بعد التخفف من الهمز كالآتي:

/ي ـَ/ج ـِ/ك ـَ/ أخف من /ي ـَ/ج ـِ/ء ـُ/ك ـَ/

إذ أسقط مقطع الهمزة التي شبهها سيبويه لثقلها بالتهوع،[٥] وفي الكتاب أمثلة كثيرة على فكرة تقليل جهد المتكلم بهذه الطريقة وغيرها.

وتقوم خطة هذا البحث على تناول أمثلة ذلك في العربية مما ذكره سيبويه مقرونا بموضوع العمل من وجه واحد تخففًا، وهو ما يدخله في فكرة الجهد الأقل كما سنلاحظ في مجموعة من المواضع وهي مواضع أكثر تعقيدًا من حيث فكرتها.

ويبدو أن سيبويه والخليل نبها إلى قضية ارتباطها بالعمل من وجه واحد للسهولة والتخفف لأن استنتاج تلك الخفة ليس واضحًا كما ظهر في مواضع تخفيف الهمز التي ضربنا لها مثلًا بالتخفف في (يجيك).

وبعدُ، أفكان تعبير (العمل من وجه واحد) مصطلحًا عند سيبويه أم قانونًا؟

لم تصل استعمالات سيبويه الكثيرة لهذا التعبير الى مرحلة الاصطلاح على الرغم من أنه وأستاذه الخليل كانا يتداولان استعماله كما نجد في نص الإجناح الذي نقله سيبويه عن الخليل عندما قال: "فزعم الخليل ان إجناح الألف أخفُّ عليهم، يعني: الإمالة، ليكون العمل من وجهٍ واحد"[٦].

ولكن العمل من وجه واحد قانون يرجع إليه سيبويه في المواضع التي يرى فيها ذلك، وهو جزء من ملاحظة سيبويه لموضوع الخفة والثقل في اللغة، وقد ذكر التخفف في مقدمة كتابه أي الأبواب السبعة الأولى التي تكونت منها تلك المقدمة العلمية وفيها مفاتيح لما سيأتي في الكتاب من مفاهيم عامة وقواعد شاملة، فقال في الباب الثاني من هذه المقدمة: "واعلم أنَّ بعض الكلام أثقلُ من بعض"[٧] وذكر التخفف في مواضع كثيرة، والعمل من وجه واحد من أبواب التخفف عنده كما سيأتي في شرح سيبويه لمواضعه.

هذا البحث مكرس للنظر في مواضع العمل من وجه واحد في الجانب الصوتي ولكننا سنذكر في هذه المقدمة أنموذجًا واحدًا من مواضع أخرى وجدناها في الكتاب ذكر فيها سيبويه (الوجه الواحد) وهي مواضع أغلبها نحوية أو صرفية، جاء في الكتاب قول سيبويه: "يقولون:

ضـــربوني وضـــربتُ قومَك، لأنّه يليه، فكان أن يكونَ الكلامُ على وجهٍ واحدٍ – إذا كان لا يمتَنِعُ الآخرُ من أن يكونَ مبنياً على ما بُنى عليه الأولُ – أقربَ في المأْخَذ"[٨]، فهذا موضـــع نحوي ضـــرب له سـيبويه أمثلة من القرآن الكريم فقال: "ومثلُ ذلك قوله عزَّ وجلَّ: "يُدْخِلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا"[٩]. وقوله عزَّ وجلَّ: "وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْـحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا. وَكُلًّا ضَـرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ"[١٠]. ومثلُه: "فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّـلَالَةُ"[١١]. وهذا في القرآن كثير"[١٢]. وقد شـرحه السـيرافي فقال: " عنى أن حمل الثاني على الأول أجود، حتى يكون الكلام على نظم واحد في حمل الجملتين على الفعل، ومثل ذلك قوله تعالى: " يُدْخِلُ مَنْ يَشَـاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا". وتقديره: ويعذب الظالمين؛ لأن الجملة التي قبلها مصدرة بفعل وهو "يُدْخِلُ". وقوله جل اسمه: "وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا. وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ"، لأن قبله: "فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا" وتقديره وذكرنا كلا ضربنا له. وقوله: " وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ"، لأن قبله " فَرِيقًا هَدَى"."[١٣]. فهاهنا في هذا الموضـع من كتاب سيبويه ومواضـع أخرى استعمل تعبير (وجها واحدا) وليس (العمل من وجه واحد) وهو مختلف في المعنى عنده اختلافًا بينًا وإن كان يوهم أن المقصود واحد.

وقد جاءت قضايا العمل من وجه واحد في مواضع البحث الصوتي في الكتاب كالآتي:

١- الإمالة عند الكسر:

قال سيبويه في معرض حديثه عن العدل في (فَعالِ): "وكذلك كلّ فَعالِ إذا كانت معدولة عن غير أفعل إذا جعلتها اســـماً، لأنَّك إذا جعلتها علماً فأنت لا تريد ذلك المعنى، وذلك نحو حَلاقِ التي هي معدولة عن الحالقة، وفَجارِ التي هي معدولة عن الفجرة، وما أشـبه هذا، ألا ترى أنَّ بني تميم يقولون: هذه قطامِ وهذه حذامِ؛ لأنَّ هذه معدولة عن حاذمة، وقطام معدولة عن قاطمة أو قطمة وإنمَّا كل واحدةٍ منهما معدولةٌ عن الاسـم هو علم ليس عن صـفة، كما أن عمر معدول عن عامرٍ علماً لا صـــفةً. لولا ذلك لقلت: هذا العمر، تريد: العامر"[١٤]. ونحن نريد من الدخول في باب فَعالِ المعدولة أن نوصـــل القارئ الكريم إلى كيفية ورود حديث العمل من وجه واحد فيه وننقل وجهة نظر علمائنا القدماء سـيبويه وشـيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي الدقيقة في تفعيل فكرة الجهد الأقل، فنجد النص الآتي عن (فَعالِ) عندما يكون آخره راء بعد النص الســابق في الكتاب "وأمّا أهل الحجاز فلمّا رأوه اســـماً لمؤنّث ورأوا ذلك البناء على حاله لم يغيّروه؛ لأنَّ البناء واحد، وهو ههنا اسم للمؤنّث كما كان ثمَّ اسماً للمؤنث، وهو ههنا معرفة كما كان ثمَّ، ومن كلامهم أن يشبهّوا الشيء بالشيء، وإن لم يكن مثله في جميع الأشياء. وسترى ذلك إن شاء الله،

ومنه ما قد مضـــى، فأمّا ما كان آخره راءً فإنَّ أهل الحجاز وبني تميم فيه متفّقون، ويختار بنو تميم فيه لغة أهل الحجاز كما اتفقوا في يرى، والحجازيّة هي اللغة الأولى القدمى"[١٥].

بعد ذلك ينقل سـيبويه رأي شـيخه في سـبب إمالة ما جاء على فَعالِ وآخره راء خاصـة فيقول:"**فزعم الخليل: ان إجناح الألف أخفُّ عليهم، يعني: الإمالة، ليكون العمل من وجهٍ واحد،** فكرهوا ترك الخفّة وعلموا أنهَّم إن كسروا الراء وصلوا إلى ذلك، وأنهَّم إن رفعوا لم يصلوا... فممّا جاء وآخره راءٌ: سَفارِ وهو اسم ماء، وحَضارِ وهو اسم كوكب، ولكنَّهما مؤنثان كماويّة والشِّعرى، كأنَّ تلك اسم الماءة وهذه اسم الكوكبة"[١٦].

يتحدث هذا النص عن صيغة(فَعالِ) في الأسماء المعدولة عندما يكون الاسم الذي جاء عليها منتهيا بالراء وإمالة الألف منه التي يراها الخليل أخف من عدم إمالتها، وذلك مناســبة للكسرة، فتبنى حَضارِ وسَفارِ وأمثالهما على الكسر وهي المناسبة للإمالة [١٧]، والسبب هو انتقال وضـع اللسـان فانتقاله بين مواضـع الإمالة والكسـر أيسـر من انتقاله بين الألف غير الممالة أو الفتح فيها والكســـر، تحدث الدكتور أحمد مختار عمر عن التصـــنيف النطقي لهاتين العلتين ومواضع اللسان لهما أي الكسرة ورقمها ٢ والإمالة ورقمها ٣: "ينزل اللسان معهما في اتجاه قاع الفم بنسبة الثلث (للأول) والثلثين (للثاني)"[١٨]

ولكن موضـع صـدورهما وطريقته فيهما تشـابه بين الصـوتين فهما من الحركات الأمامية التي "يتجه فيها وسط اللسان نحو الطبق الصلب (الغار)"[١٩]، فهذا التقارب هو الذي أدى الى أن تكون الإمالة أخف عليهم عند وجود الكســـر وذلك لأن عمل اللســـان لهما يكاد يكون واحدًا واختلافه في الارتفاع وذلك هو المشار اليه بالعمل من وجه واحد.

وخص النص الراء المكسورة لأن الراء عند سيبويه كأنها حرف مضـاعف بسبب قابليتها للتكرار وإن كانت حرفًا واحدًا وبزنته [٢٠] فتكون عندما ترقق مع الكســـر مؤثرة فيما قبلها من ألف فتمال.

فالتشـابه بين الإمالة وهي تقريب الألف من الياء [٢١] والكسر وهو نصـف الياء المدية في الزمن هو الوجه الذي دعا الخليل للقول في مثل هذه الحالة الممثلة بحَضـــارِ وسَـفارِ: إن العمل ســـيكون من وجه واحد، وإنه أخف على متكلمي العربية، وهذا من باب المماثلة بين الأصـــوات لتخفيف مؤونة الانتقال بين مواقع غير متشـــابهة أو غير متقاربة في حال الفتح عند إصـــدار الأصوات في الجهاز النطقي.

٢- الكسر للكسر:

ذكر سـيبويه موضـعًا آخر للعمل من وجه واحد مفاده تقليل الجهد أيضـا، وذلك بتكرار الصوت للرجوع الى موضع واحد في نطق الكلمات، ولكنه قرن ذلك بملاحظة جليلة هي أن ذلك يكون مع أصـــوات بعينها وفي أوزان بعينها في " باب الحروف الســـتة إذا كان واحد منها عيناً وكانت الفاء قبلها مفتوحة وكان فَعِلا"[٢٢]. والمقصود بالحروف الستة": الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء"[٢٣] يتضح ذلك من الأمثلة في النص الآتي التالي لعنوان الباب والمكمل لشرطه "إذا كان ثانيه من الحروف الســتة فإن فيه أربع لغات: مطردٌ فيه فَعِل، وفِعِل، وفَعْل، وفِعْل، إذا كان فِعلاً أو اســماً أو صــفةً فهو ســواء، وفي فَعيلٍ لغتان: فَعِيلٌ وفِعِيلٌ إذا كان الثاني من الحروف الستة، مطردٌ ذلك فيهما لا ينكسر في فَعيل ولا فَعِلٍ، إذا كان كذلك كسرتَ الفاء في لغة تميم"[٢٤]، بعد أن وضــع ســيبويه هذه القواعد الصــوتية أخذ بذكر أمثلتها من كلام العرب وإن كان المثال لهجيًا فهو يشير الى اللغات فيه، وإن كان لم يذكر غير تميم في تحديد أصـحاب اللهجة في كل نطق للكلمات، مع أنه ذكر للحالة الأولى أربع لغات. فقال "وذلك قولك: لِئِيمٌ وشِـــهِيدٌ، وسِـــعِيدٌ ونِحِيفٌ، ورِغِيفٌ، وبِخِيلٌ وبِئِيسٌ، وشِـــهِدٌ، ولِعِبٌ، وضِـــحِكٌ، ونِغِلٌ، ووِخِمٌ. وكذلك فِعِلٌ إذا كان صفة أو فعلا أو اسماً. وذلك: رجلٌ لِعِبٌ ورجلٌ مِحِكٌ، وهذا ماضـغٌ لِهِمٌ، وهذا رجلٌ وِعِكٌ، ورجلٌ جِئِزٌ – يقال جَئِز الرجلُ إذا غصَّ – وهذا عَيرٌ نِعِرٌ، وفِخِذٌ"[٢٥].

/ ل ـَ / ء ـِـ م /	/ ل ـِ / ء ـِـ م /
/ ش ـَ / ه ـِـ د/	/ ش ـِ / ه ـِـ د/
/ س ـَ / ع ـِـ د/	/ س ـِ / ع ـِـ د/
/ ن ـَ / ح ـِـ ف/	/ ن ـِ / ح ـِـ ف/
/ ر ـَ / غ ـِـ ف/	/ ر ـِ / غ ـِـ ف/
/ ب ـَ / خ ـِـ ل/	/ ب ـِ / خ ـِـ ل/
/ ب ـَ / ء ـِـ س/	/ ب ـِ / ء ـِـ س/
/ ش ـَ / ه ـِ / د ـُ ن /	/ ش ـِ / ه ـِ / د ـُ ن /
/ ل ـَ / ع ـِ / ب ـُ ن /	/ ل ـِ / ع ـِ / ب ـُ ن /
/ ض ـَ / ح ـِ / ك ـُ ن /	/ ض ـِ / ح ـِ / ك ـُ ن /

/ ن ـَ / غ ـِ / ل ـُ ن /	/ ن ـِ / غ ـِ / ل ـُ ن /
/ و ـَ / خ ـِ / م ـُ ن /	/ و ـِ / خ ـِ / م ـُ ن /
/ م ـَ / ح ـِ / ك ـُ ن /	/ م ـِ / ح ـِ / ك ـُ ن /
/ ل ـَ / ه ـِ / م ـُ ن /	/ ل ـِ / ه ـِ / م ـُ ن /
/ و ـَ / ع ـِ / ك ـُ ن /	/ و ـِ / ع ـِ / ك ـُ ن /
/ ج ـَ / ء ـِ / ز ـُ ن /	/ ج ـِ / ء ـِ / ز ـُ ن /
/ ن ـَ / ع ـِ / ر ـُ ن /	/ ن ـِ / ع ـِ / ر ـُ ن /
/ ف ـَ / خ ـِ / ذ ـُ ن /	/ ف ـِ / خ ـِ / ذ ـُ ن /

نلاحظ في هذه الأمثلة تشـــابه البنية المقطعية التي حدثت فيها التغيرات الصـــوتية بالأحرف الســـتة المشـــار إليها فقد أجريت في مقاطع قصـــيرة مفتوحة مكررة فيها جميعها، وفي بعض اللهجات العربية اختار المتكلم الكســـر في المقطع القصـــير المفتوح الأول، ولكن المقطع التالي لم يكن متشابها في تلك الكلمات كلها، فالكلمات الست الأولى: شهيد سعيد نحيف رغيف بخيل بئيس يقوم صـوت المد فيها أي الكسـرة الطويلة بدور النواة المقطعية ولذلك فمن المناسـب أن تجاوره كســـرة بحســـب لهجة من يكســـر فاء الكلمة ليكون العمل من وجه واحد، وفي باقي الكلمات تقوم الكسرة القصـيرة بدور النواة المقطعية في المقطع الثاني وهي تناسـب أيضـا مجاورة الكسرة في اختيار تلك اللهجة.

أردف سيبويه بنص آخر شارحًا سبب تحديد تلك الأصوات الستة (الصوت لديه في هذه النصـــوص وغيرها في الكتاب هو الحرف لأن حرف الشـــيء طرفه فطرف العين مثلا الصـــوت /ع/) قال: "وإنما كان هذا في هذه الحروف لأن هذه الحروف قد فعلت في يفْعَلُ ما ذكرت لك، حيث كانت لاماتٍ، من فتح العين، ولم تفتح هي أنفســـها هنا لأنه ليس في الكلام فَعَيْلٌ، وكراهية أن يلتبس فَعِلٌ بفَعَلٍ فيخرج من هذه الحروف فَعِلٌ، فلزمها الكســـر ههنا وكان أقرب الأشـــياء إلى الفتح، وكانت من الحروف التي تقع الفتحة قبلها لما ذكرت لك، **فكســـرت ما قبلها حيث لزمها الكسر، وكان ذلك أخف عليهم** حيث كانت الكسرة تشبه الألف، **فأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد.** كما أنهم إذا أدغموا فإنما أرادوا أن يرفعوا ألسنتهم من موضع واحد. وإنما جاز هذا في هذه الحروف حيث كانت تفعل في يَفْعل ما ذكرت لك فصار لها في ذلك قوةٌ ليست لغيرها" [٢٦]

يتحدث سيبويه في هذا النص عن الحروف الستة أو حروف الحلق (إذ لم يكن سيبويه وشيخه الخليل وعامة علماء زمنهم على علم بوجود الحَنجرة ليفصل أصواتها كالهمزة والهاء بمخرج مستقل فيها عن الحلق) هذه الحروف الستة كان قد ذكرها في باب سابق هو "باب ما يكون يفعل من فَعَلَ فيه مفتوحا" وفيه قال "وذلك إذا كانت الهمزة أو الهاء أو العين أو الحاء أو الغين أو الخاء لاما أو عينا. وذلك قولك: قرأ يقرأ وبذأ يبذأ ... هذا ما كانت هذه الحروف فيه لامات. وأما ما كانت فيه عينات فهو كقولك سأل يسأل وثأر يثأر ... وإنما فتحوا هذه الحروف لأنها سفلت في الحلق فكرهوا أن يتناولوا حركة ما قبلها بحركة ما ارتفع من الحروف فجعلوا حركتها من الحرف الذي في حيزها وهو الألف وإنما الحركات من الألف والواو والياء. وكذلك حركوهن إذا كن عينات ولم يفعل هذا بما هو من موضع الواو والياء لأنهما من الحروف التي ارتفعت". [٢٧]

فما نفهمه من كلامه أن حروف الحلق المذكورة إذا جاءت في لام يفعل او عينه وهو المضارع المأخوذ من فَعَلَ ستكون عينه مفتوحة والسبب الذي ذكره سيبويه هو مناسبة حروف الحلق من حيث تقارب موقع إصدارها مع الفتحة التي هي بعض الألف، وما أشار إليه من ارتفاع الواو والياء هو إشارة الى أن الألف لا مؤونة فيها على اللسان عكسهما إذ يرتفع لهما اللسان من الأمام للياء أو الخلف للواو ومنهما أو من نفس مواقعهما الكسرة والضمة إذ الحركات أبعاض هذه الحروف (على أن سيبويه لم يكن يذكر لمخرج الواو أو الضمة مثلًا ارتفاع مؤخر اللسان وكان يذكر الشفتين ولكن في هذا الموضع من كتابه الجليل إشارة واضحة الى معرفته بارتفاع اللسان لنطقها كما يتضح في قوله في النص: "ما ارتفع من الحروف" يريد صوتي الواو والياء والضمة والكسرة وهما منهما). فكأنه استشعر أن الألف يكون العمل لها وهو اهتزاز الوترين لجهرها من الحلق وهو موقع مستفل كمواقع أو مخارج أصوات الحلق على الرغم من أنه والخليل لم يكونا على علم بوجود الحَنجرة كما أسلفنا ولا الوترين الصوتيين اللذين يهتزان أو يصطفقان بداخلها للصوت المجهور. من هنا الانتقال إلى الحديث عن أن كسر لغة تميم لأول (فعيل) سيتابعه في عينه التي من حروف الحلق المذكورة كسر العين متابعة للفاء على سبيل العمل من وجه واحد أو اختصار جهد الجهاز النطقي للمتكلم بالانتقال بين موضعين بدلًا من الانتقال بين مجموعة مواضع كما جاء في الأمثلة التي ذكرها على فِعِيل وفِعِل مثل لِئِيم ولِعِب وغيرها.

وقد شبه ذلك بما يكون من الجهاز النطقي في حالة الإدغام إذ يختصر عدد الانتقالات بين المواضع المختلفة بتوحيد الصوت المدغم مع المدغم فيه وهو عمل من وجه واحد، وهو ما أشار اليه الباحثون اللغويون الغربيون ممن تابع زبف في مثال الإدغام الذي ضربناه من دراساتهم في مقدمة البحث إذ توصلوا الى أن قانون الجهد الأقل ينطبق على تفضيلات المتكلمين في كل مواضع المماثلة.

كما أنه شبه الكسرة في هذا الموضع بالألف كما يبدو لأنها أثرت فيما بعدها فكسرته كما أثرت الفتحة وهي بعض الألف في ما بعدها من حروف الحلق في وزن يفعَل من فَعَل فظهر مفتوح العين إذا جاءت من حروف الحلق للسبب المذكور سابقًا، فقد قال فيما بعد متحدثا عن الضمة والفتحة باستعمال الواو والألف أيضًا "وأما أهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس، وقالوا رؤفٌ ورءوفٌ، فلا يضم لبعد الواو من الألف. فالواو لا تغلب على الألف إذ لم تقرب كقرب الياء منها. كما أنك تقول: مَمِّثلك، فتجعل النون ميمًا، ولا تقول هَمِّثلك فتدغم، لأن النون لها شبهٌ بالميم ليس للام"[٢٨]. فشبهها بإدغام مَن مثلك؟ لأن العمل فيها هنا في الإدغام سيكون من ناحية تشابه النون الساكنة في هذا المثال بغنتها بالميم التي تليها فتدغم لوجود هذه الإمكانية للعمل من وجه واحد بالانتقال الى موضع الغنة الأنف في الجهاز النطقي مرة واحدة بدلًا من التنقل بين مواضع مختلفة عند الفك ولا سيما أن هذه النون مسبوقة بميم أيضا فهنا يتمثل بوضوح تعرف سيبويه قبل أكثر من ألف عام ما عرف في العصر الحديث بقانون الجهد الأقل.

٣- ما يمتنع من الإمالة:

ذكر سيبويه في " باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات التي أملتها فيما مضى" المواضع التي لا تمال فيها الألف وهي مواضع تعامل صوتي إذ تلتقي الألف أصواتًا مطبقة أو مفخمة أو مستعلية ثم ذكر أمثلتها من المفردات العربية كالآتي: "فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء والغين، والقاف، والخاء، إذا كان حرفٌ منها قبل الألف والألف تليه. وذلك قولك: قاعدٌ، وغائبٌ، وخامدٌ، وصاعدٌ، وطائفٌ، وضامنٌ، وظالم"[٢٩].

ثم ذكر الأسباب الصوتية التي كانت وراء هذا الامتناع، قال "وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروفٌ مستعليةٌ إلى الحنك الأعلى، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها كما غلبت الكسرة عليها في مساجد ونحوها. **فلما كانت الحروف مستعليةً وكانت الألف تستعلى، وقربت من الألف، كان العمل من وجهٍ واحد أخف عليهم**، كما أن الحرفين إذا تقارب موضعهما كان رفع اللسان من موضعٍ واحد أخف عليهم فيدغمونه"[٣٠].

أدرج سيبويه هذه المواضع التي يمتنع فيها أن تمال الألفات إذا جاورت بعض الأصوات ذاكرًا السبب فهذه الحروف مستعلية أي يرتفع لها مؤخر اللسان وتمتنع معها الإمالة التي تقرب فيها الألف من الياء التي ذكرنا آنفًا نقلًا عن وصف الدكتور أحمد مختار عمر لها بأنها أي صوت حركة الإمالة (رقم ٣) ترتفع منطقة وسط اللسان باتجاه الغار، فهذان موضعان مختلفان في الجهاز النطقي بينهما تباعد فلا يفضل العربي الإمالة في حال وجود الألف مع هذه الأصوات المستعلية.

ثم أنكر أن تسمع إمالتها من العرب الفصحاء حيث قال: "ولا نعلم أحداً يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلغته"[٣١]. وأردف قائلا: "وكذلك إذا كان الحرف من هذه الحروف بعد ألف تليها، وذلك قولك: ناقدٌ وعاطسٌ وعاصمٌ، وعاضدٌ وعاظلٌ وناخلٌ، وواغلٌ ".[٣٢]

في النصوص السابقة أشار سيبويه إلى امتناع إمالة الألف مع هذه الحروف لأن الألف تستعلي مثلها معها ليكون العمل من وجه واحد، وقد ذكر أن في ذلك مماثلة كالتي نجدها في تحويل صوت لآخر لأجل أن يدغم فيه للتخفف وهو من مسائل بذل جهد أقل كما مر.

لقد ذكر سيبويه التفخيم في موضع واحد من كتابه عندما عدد الحروف الأصلية ثم جاء ليعد الحروف الفروع وميزها مستحسنة وغير مستحسنة وكانت الألف المفخمة من الحروف المستحسنة لديه. قال "وألف التفخيم يعنى بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة"[٣٣] فلم يسم الصاد والضاد والطاء والظاء أو يصفها بالتفخيم، ويبدو أن إشارته الى الاستعلاء فيها أي في اللسان لنطق هذه الأصوات هي طريقة تعبيره عن تفخيمها والتفخيم إذ يستعمل في وصفها هو مصطلح متأخر ظهر في كتب القراءات التي تهتم بالجانب الصوتي بعد زمن طويل من ظهور كتاب سيبويه وعلمه في باب الأصوات ومن ذلك كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري.

وقول سيبويه السابق " منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروفٌ مستعليةٌ إلى الحنك الأعلى، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى" يدل على أن الألف عندما تخرج من موضعها أي ترتفع هي الأخرى للمشاكلة وتناسب الحركة فارتفاع اللسان الطفيف في نطق الألف من مواضعها يؤدي الى ألف مفخمة.

يقول الدكتور عبد العزيز الصيغ في دراسته للأصوات عند سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث في مبحث الاستعلاء والاستفال "هاتان الصفتان موضوعتان أيضًا على أساس النظر الى الجانب العضوي فالاستعلاء يعني استعلاء اللسان والاستفال يعني استفاله وهما قريبا الشبه من الإطباق والانفتاح لولا أن الخلاف بينهما أن الاستعلاء يكون لجزء اللسان الأخير والإطباق يكون للأخير وللطرف معا"[٣٤]

يرى ابن الجزري الصحيح ألا توصف الألف بترقيق ولا تفخيم بل بحسب ما يتقدمها فأنها تتبعه ترقيقاً وتفخيماً [٣٥]، ولذلك تفخم عندما تجاور الأصوات المستعلية، بل أكثر من ذلك أشار د.سلمان العاني إلى تأثر كل المقطع وحتى ما جاوره بالأصوات المفخمة بقوله "حينما يوجد صوت ساكن مفخم في داخل المقطع يفخم كل المقطع ... بل ربما يمتد نفوذ الصوت المفخم إلى المقاطع المجاورة "[٣٦]. فكذلك على سبيل المماثلة تفخم الألف المجاورة للأصوات المستعلية ومنها

أصوات الإطباق أو التفخيم أو لا تمال فتفتح ليكون العمل من وجه واحد وفيه تفضيل لبذل جهد أقل.

٤- باب الراء

أحوال صوت الراء من المواضع التي أكد فيها سيبويه أن العمل من وجه واحد أخف على المتكلمين وهي ترجمة قانون الجهد الأقل تطل علينا من أقدم العصور حيث قال فيه " والراء إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحاً فلما كانت الراء كذلك قالوا: هذا راشدٌ، وهذا فراشٌ، فلم يميلوا لأنهم كأنهم قد تكلموا براءين مفتوحتين، فلما كانت كذلك قويت على نصب الألفات، وصارت بمنزلة القاف، حيث كانت بمنزلة حرفين مفتوحين، فلما كان الفتح كأنه مضاعف وإنما هو من الألف، كان العمل من وجه واحد أخف عليهم"[٣٧]

قال أبو سعيد السيرافي في شرح هذا النص: "اعلم أن الراء فيها تكرير إذا نطق بها ومد الصوت، والتكرير الذي فيها يمنع الإمالة إذا كانت مضمومة أو مفتوحة أكثر من منع غيرها من الحروف سوى الحروف المستعلية، وإذا كانت مكسورة فهي تقوى على الإمالة أكثر من قوة غيرها من الحروف المكسورة؛ لأنها إذا كانت مضمومة أو مفتوحة فكأن الفتح أو الضم يتضاعف فيها وهما يمنعان الإمالة، وإذا كانت مكسورة فكأن الكسر يتضاعف فيها وهو يقوي الإمالة"[٣٨]

ولفهم خصوصية الراء في مواضع الإمالة ننظر كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي القيسي وفيه قوله "اعلم أن الراءات أصلها التغليظ والتفخيم ما لم تنكسر الراء فإن انكسرت غلبت الكسرة عليها فخرجت عن التفخيم الى الترقيق ... واعلم أن الترقيق في الراء إمالة نحو الكسرة "[٣٩]". "فترقيق الراء إمالة وهي ترقق إذا كسرت والإمالة ميل بها نحو الكسر ففي الراء المكسورة قوة كسرتين كسرتها وكسرة إمالتها وبهذا أشبهت الياء لأنها ضعف الكسرة والراء تخرج كأن كسرتها مضاعفة بإمالتها وكسرتها، وهي عند سيبويه "وان كانت كأنها حرفان مفتوحان فإنما هي حرف واحد وبزنته "[٤٠]"[٤١].

٥- ضم ألف الوصل

في النصوص الآتية يصف سيبويه أحوال ألف الوصل التي تصل ما قبلها بما بعدها وتسقط من اللفظ، قال: "واعلم أن هذه الألفات إذا كان قبلها كلامٌ حذفت، لأن الكلام قد جاء قبله ما يستغنى به عن الألف، كما حذفت الهاء حين قلت: عِ يا فتى، فجاء بعدها كلام، وذلك قولك: يا زيد اضرب عمراً، ويا زيد اقتل واستخرج، وإن ذلك احرنجم، وكذلك جميع ما كانت ألفه موصولة"[٤٢]. بعد ذلك ذكر سيبويه الموضع الذي تتمثل فيه في حركة الألف الموصولة قضية المماثلة الصوتية والعمل من وجه واحد تخففًا من الانتقالات المتباعدة بين موضعي إخراج الكسر والضم، وذلك ما يحدث في حركات أعضاء الجهاز النطقي عند إصدار الأصوات للوصول الى

جهد أقل يبذله المتكلم، فشرحه ضاربًا الأمثلة لهذه الأحوال. قال: "واعلم أن الألف الموصولة فيما ذكرنا في الابتداء مكسورةٌ أبداً، إلا أن يكون الحرف الثالث مضموماً فتضمها، وذلك قولك: اُقتُل، اُستُضعِف، اُحتُقِر، اُحرُنجم. وذلك أنك **قربت الألف من المضموم إذ لم يكن بينهما إلا ساكن فكرهوا كسرةً بعدها ضمةٌ، وأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد**، كما فعلوا ذلك في: مذ اليوم يا فتى. وهو في هذا أجدر، لأنه ليس في الكلام حرفٌ أوله مكسور والثاني مضموم"[٤٣].

ومن الملاحظ أن سيبويه ربط في غالب المواضع التي ذكر فيها العمل من وجه واحد في كتابه بمسائل وأمثلة من باب الإدغام مما يدل على أن الإدغام يعد عنده أبرز مثال للعمل من وجه واحد، إذ يتخفف به المتكلم ويبذل فيه جهدا أقل. فهنا أيضا ربط المماثلة بين ضم الألف الموصولة إذا كان الثالث مضموما بالمماثلة الصوتية التي تجعل المتكلم يدغم صوتًا في صوت ويماثل الصوتين ليرفع لسانه من موضع واحد هو مخرج الصوت، فقال "وفعل هذا به كما فعل بالمدغم إذا أردت أن ترفع لسانك من موضع واحد، وكذلك أرادوا أن يكون العمل من وجه واحد، ودعاهم ذلك إلى أن قالوا: أنا أَجُوءُك وأُنْبُؤُك، وهو منحُدُرٌ من الجبل. أنبأنا بذلك الخليل"[٤٤]

فمفاد كلامه أن همزة الوصل أو الألف الموصولة تُضم إذا كان الحرف الثالث بعدها مضموما ليكون العمل من وجه واحد مما يدخل في مفهوم الجهد الأقل للسهولة ولاسيما أن ما بينهما ساكن، فلو قلنا من احتُقِرَ؟ وتكتب صوتيا كالآتي:

/مـَ / ن ـُ ح / تـُ / ق ـِ / ر ـَ /

سيكون بقاء وضع الفم مستعدا لتكرار العمل لإنتاج حركة الضم نفسها أسهل من الانتقال من الكسر إلى الضم. مع أن الضم في الكلمة متبوع بكسر! وملاحظة سيبويه في أنه ليس في الكلام العربي كلمة أولها مكسور والثاني مضموم إشارة متميزة إلى أن الذوق العربي والتعود يلعب دورًا في عدم قبول الانتقال من الكسر إلى الضم، وقبول العكس والانتقال في الكلمة نفسها من الضم إلى الكسر، فالانتقال من الضم إلى الكسر كثير في مثل المبني للمجهول كُتِبَ، مع ملاحظة أن المقطع يختلف بأنه طويل مغلق في حالة ألف الوصل كما يظهر في الكتابة الصوتية أعلاه وفي المبني للمجهول المقاطع قصيرة كالمثال الآتي:

/ك ـُ / ت ـِ / ب ـَ /

وفي أَجُوءُك وأُنْبُؤُك نلاحظ الإتباع في الضم بالطريقة نفسها مع ذكر العمل من وجه واحد للسهولة التي في الرجوع الى موضع الحركة نفسها والمشابهة بين الحركتين المتواليتين بدلا من الانتقال بين الضم والكسر لتباعد مخرجيهما، وقد أشار سيبويه الى مثَله (أَجُوءُك) في أكثر من موضع من كتابه للإشارة الى قضية اتباع الحركة بمثلها في اللهجات كما مر بنا، ومن ذلك

مِنْتِن ومِغِيرة قال "وأما الذين قالوا مِغِيرة ومِعِين فليس على هذا ولكنهم أتبعوا الكسرة الكسرة كما قالوا مِنْتِن وأُنْبُؤُك وأَجُوءُك، يريد أَجيئُك وأُنبِئُكَ"[٤٥]

/مِـ/ غ ـِـ / ر ـَ / ة ـَ /

/مِـ / ع ـِـ ن/

/م ـِ ن/ ت ـِ/ ن ـُ ن/

/ء ـَ / ج ـِـ / ء ـُ /ك ـَ / /ء ـَ / ج ـُـ / ء ـُ /ك ـَ /

/ ء ـُ ن / ب ـِ / ء ـُ / ك ـَ / / ء ـُ ن / ب ـُ / ء ـُ / ك ـَ /

وفي "مُنحُدُرٌ" التي مثل بها سيبويه نقلًا عن شيخه الخليل في قوله " وهو منحُدُرٌ من الجبل" [٤٦] يظهر الاتباع نفسه في المسموع من هذا القائل العربي في صوتين وليس في صوت واحد وهما كل من الحاء والدال المتواليين اتباعا لضم الميم في أولها.

/ م ـُ ن / ح ـَ / د ـِ / ر ـُ ن / / م ـُ ن / ح ـُ / د ـُ / ر ـُ ن /

٦- ما تقلب الواو فيه ياءً

ذكر سيبويه أن الواو تقلب ياء "إذا كانت متحركة والياء قبلها ساكنة، أو كانت ساكنة والياء بعدها متحركة"[٤٧] ومن ثم ذكر السبب فقال: "وذلك لأن الياء والواو بمنزلة التي تدانت مخارجها لكثرة استعمالهم إياهما وممرهما على ألسنتهم، فلما كانت الواو ليس بينها وبين الياء حاجزٌ بعد الياء ولا قبلها، **كان العمل من وجهٍ واحد ورفع اللسان من موضع واحد، أخف عليهم**. وكانت الياء الغالبة في القلب لا الواو؛ لأنها أخف عليهم، لشبهها بالألف. وذلك قولك في فَيْعِلٍ: سَيِّدٌ وصَيِّبٌ، وإنما أصلهما سَيْوِدٌ وصَيْوِبٌ"[٤٨].

لو نظرنا الى سيِّد وسَيْوِد والفرق بينهما

/س ـَ ي/ي ـِ /د ـُ ن/ /س ـَ ي/ و ـِ / د ـُ ن/

نلاحظ أن الانتقال من الفتح الى إدغام نصف المد الياء لا يوازي الانتقال من المصوت الفتحة إلى نصف المد الياء ثم الواو نصف المدية ثم الكسرة فالانتقال بين الأنواع الثلاثة والانتهاء بعد الواو بكسرة لا يتماشى مع ما اعتيد في العربية ويمكن أن يعد من كراهاتها، ولعل الانتقال من الياء إلى الكسر واضح السهولة قياسًا بانتقال من إدغام للواو بالواو التالية ومن ثم الانتقال إلى كسرة لتباعد المخارج.

ومثله ما حدث في "صَـيِّبٌ" التي كان القياس فيها أن يقال (صَـيْوِبٌ) لكن العرب لم تقل ذلك تخففًا من توالي الفتح ثم الياء نصـف المدية ثم الواو نصـف المدية ثم الكسـرة فهذا انتقال للسان في الجهاز النطقي بين مواضع خروج الياء من وسط اللسان ثم الرجوع إلى الخلف وارتفاع مؤخر اللسان ثم العودة إلى الكسرة وهي من موضع الياء في وسط اللسان. وأيسر على اللسان أن ينطلق من موضع واحد هو موضع الياء في "صَيِّبٌ".

/صـَي/ي_/ب_ُن/ /صـَي/و_/ ب_ُن/

فهذا من التخفف والجهد الأقل.

٧- المماثلة الناقصة

لقد كانت المماثلة التامة في الإدغام كما أسـلفنا في الأمثلة السـابقة التي ضـربت له نصب عيني سيبويه في كتابه مثالًا للعمل من وجه واحد، ضربها مثلًا لتقريب فكرة النماذج التي أوردناها أثناء البحث، وقد ظهرت في كتاب سـيبويه مباحث للمماثلة بأنواعها الأخرى كالإدغام الناقص، والتقريب، والإبدال لغرض المماثلة وغيرها، وهي كلها تسـير باتجاه واحد هو أن يكون العمل من وجه واحد للتخفف والسـهولة ببذل جهد أقل نوعًا ما بتلك المماثلة، وأكثر قوله للعمل من وجه واحد كان لتوضـيح مماثلة ناقصـة لأن المماثلة التامة أو الإدغام تتضـح من مثال واحد فيعرف القارئ الإدغام مثالًا للعمل من وجه واحد.

وهنا سنطرح مجموعة من الأمثلة للمماثلة الناقصة بين الأصوات والتي عللها بالعمل من وجه واحد فقد قال سيبويه "وقالوا في مفتعلٍ من صبرت: مصطبرٌ، أرادوا التخفيف حين تقاربا ولم يكن بينهما إلا ما ذكرت لك، يعني قرب الحرف، وصـارا في حرفٍ واحد، ولم يجز إدخال الصـاد فيها لما ذكرنا من المنفصـلين، فأبدلوا مكانها أشـبه الحروف بالصـاد وهي الطاء؛ **ليسـتعملوا ألسنتهم في ضربٍ واحد من الحروف، وليكون عملهم من وجهٍ واحد** إذ لم يصلوا إلى الإدغام"[٤٩]

ولشرح هذا النص المعتمد على تحليل لغوي صوتي أجراه سيبويه وتوصل إلى أنه يدخل في موضوع العمل من وجه واحد نقول: إن الأصل أن يقال مصتبر في مُفتعل من صبر.

/ م_ُ ص / ت_َ / ب_ِ / ر_ُ ن /

ولكن جاورت الصـاد المفخمة التاء فأثرت فيها بامتداد ذلك التفخيم إليها وانتقلت بها لتتحول إلى مفخمها وهو الطاء فصارت مصطبر.

/ م_ُ ص / ط_َ / ب_ِ / ر_ُ ن /

ولا شك أن تحضـر الجهاز النطقي للتفخيم الذي عم ما بعد الصـاد يدخل في العمل من وجه واحد في الصـوتين وحتى فتحة الطاء سـتكون مفخمة، لأن مخرج الطاء والتاء نفسـه مع الاختلاف في ارتفاع اللسـان للإطباق في الطاء كما بدأ بالإطباق للصـاد، فهذه مماثلة صـوتية

للعمل من وجه واحد وهو ارتفاع اللسان للصوتين الصاد والطاء بدلا من استفاله للتاء بعد الصاد فالانتقال أصعب وفي استعمال الطاء بذل جهد أقل.

ومن أمثلة المماثلة الصوتية الأخرى بالتقارب بين الأصوات التي أوردها سيبويه ونسبها إلى العمل من وجه واحد ما جاء في " باب ما تقلب فيه السين صاداً في بعض اللغات"[٥٠] فهو يذكر أن هذه لهجة، فلغات العرب التي تعتمدها تقلب السين صادًا في بعض المواضع التي تجاور فيها القاف. قال سيبويه: "تقلبها القاف إذا كانت بعدها في كلمة واحدة، وذلك نحو: صقت، وصبقت. وذلك أنها من أقصى اللسان، فلم تنحدر انحدار الكاف إلى الفم، وتصعدت إلى ما فوقها من الحنك الأعلى"[٥١].

/ س ـِ ق / ت ـُ / / ص ـِ ق / ت ـُ /

/ س ـَ / ب ـَ ق / ت ـُ / / ص ـَ / ب ـَ ق / ت ـُ /

والتعليل الصوتي الواضح في هذا النص يكمن في استعلاء القاف فعندما ينطق المتكلم بالسين ولسانه يتحضر للاستعلاء للقاف يرتفع مبكرًا وهو ينطق السين فتتحول إلى نظيرها المفخم المستعلي الصاد فيقول بدلًا من سقت صقت وهنا تكمن المماثلة لتقارب الصوتين القاف والصاد أكثر من السين المستفلة والقاف المستعلية، وهذا التحول إلى الصاد من باب العمل من وجه واحد "أي ليكون قبل القاف حرف مستعل فجيء بحرف مستعل يضارع استعلاء القاف وهو الصاد بهدف تحقيق التجانس والانسجام لأنه من الصعب الانتقال من الاستفال إلى الاستعلاء"[٥٢]، قال سيبويه: "فلما كانت كذلك أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف، ليكون العمل من وجهٍ واحد، وهي الصاد، لأن الصاد تصعد إلى الحنك الأعلى للإطباق، فشبهوا هذا بإبدالهم الطاء في مصطبرٍ والدال في مزدجرٍ"[٥٣] فعاد بتشبيهه موضع المماثلة إلى (مصطبر) التي شرحناها آنفا و(مزدجر) التي أبدلت فيها التاء دالًا للمماثلة الصوتية التي حدثت بسبب المجاورة كما حدث في مصطبر أيضا للحصول على نطق بجهد أقل بالعمل من وجه واحد.

/ م ـُ ز / ت ـَ / ج ـِ ر/ / م ـُ ز / د ـَ / ج ـِ ر/

ومن التقريب والمماثلة أيضًا وإبدال التاء دالًا لقربها من الجيم الذي ضرب له أمثلة أخرى وذكر فيه أن التقريب عمل من وجه واحد قوله: " وقد قربوها منها في افتعلوا، حين قالوا اجدمعوا أي اجتمعوا، واجدرءوا، يريد اجترءوا، لما قربها منها في الدال وكان حرفاً مجهوراً، قربها منها في افتعل لتبدل الدال مكان التاء، وليكون العمل من وجه واحد"[٥٤]، فتعليل كل المفردات التي أبدلت فيها التاء دالًا في صيغة افتعل ومفتعل التي جاورت الجيم هو التأثر بها والتحول الى صوت مماثل لها ليكون العمل من وجه واحد والجهد المبذول في نطقها أقل.

/ ء ـِ ج / ت ـَ / ر ـَ / ء ـُـــ / / ء ـِ ج / د ـَ / ر ـَ / ء ـُـــ /

/ ء ـِ ج / ت ـَ / م ـَ / ع ـُـــ / / ء ـِ ج / د ـَ / م ـَ / ع ـُـــ /

ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها سيبويه لصيغة الافتعال في باب العمل من وجه واحد " وقالوا في مفتعلٍ من صبرت: مصطبرٌ، أرادوا التخفيف حين تقاربا ولم يكن بينهما إلا ما ذكرت لك، يعني قرب الحرف، وصارا في حرفٍ واحد. ولم يجز إدخال الصاد فيها لما ذكرنا من المنفصلين، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالصاد وهي الطاء؛ ليستعملوا ألسنتهم في ضربٍ واحد من الحروف، وليكون عملهم من وجهٍ واحد إذ لم يصلوا إلى الإدغام"[٥٥] فهاهنا فخمت التاء فأصبحت طاء لأنها من المخرج نفسه مع اختلاف في استفال التاء فعندما يبقى اللسان مرتفعا من مؤخره لتفخيم الصاد تتحول التاء إلى مفخمها الطاء لمجاورتها الصاد المفخمة، فارتفاع اللسان للصاد بقي على حاله للعمل من وجه واحد، ولبذل جهد أقل في نطق الكلمة باستعمال موضع واحد بدلا من الانتقال بين المواضع لإخراج الأصوات في الفم.

/ م ـُ ص / ت ـَ / ب ـِ ر / / م ـُ ص / ط ـَ / ب ـِ ر /

ومثلها اضطجر

/ء ـِ ض / ت ـَ / ج ـَ / ر ـَ / /ء ـِ ض / ط ـَ / ج ـَ / ر ـَ /

قال فيها سيبويه" فألزموها ما ألزموا الصاد والتاء، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالظاء وهي الطاء ليكون العمل من وجه واحد"[٥٦] عللت بالعلة السابقة نفسها من مجاورة المفخم الظاء وابدال التاء بمفخمه الطاء. والمقصود بقوله لم يصلوا الادغام انهم لم يقولوا مصَّبر واضَّجر.

/ م ـُ ص / ص ـَ / ب ـِ ر / /ء ـِ ض / ض ـَ / ج ـَ / ر ـَ /

ومن المواضع الأخرى إشراب الصاد زايا عند سكونها وملاقاتها الدال أو إبدالها زايا خالصة في بعض اللهجات كما جاء في حديث سيبويه عنها. وكل ذلك للعمل من وجه واحد، قال: "فأما الذي يضارع به الحرف الذي من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال. وذلك نحو: مصدرٍ، وأصدر، والتصدير؛ لأنهما قد صارتا في كلمة واحدة، كما صارت مع التاء في كلمة واحدة في افتعل"[٥٧] فهنا أشربت الصاد زايا أي اختلط الصوتان في النطق والسمع وهذا من التعامل الصوتي ولا يستطيع المتكلم السيطرة عليه بشكل عام لتحقيق الصاد، وعدّه سيبويه في الأصوات المستحسنة التي تستحسن قراءة القرآن والشعر بها[٥٨]، وليس بصوت لهجي، إنما هو من قبيل تأثر الأصوات وتأثيرها بشكل جزئي أثناء النطق.

ونلاحظ أن المماثلة ناقصة في كل هذه الأمثلة الأخيرة غير كاملة بين الأصوات فهي تختلف عن الإدغام الذي يعد مماثلة تامة.

وأما إبدال الصوت اللهجي من الصاد الى الزاي فقال فيه: "وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زاياً خالصة، كما جعلوا الإطباق ذاهباً في الإدغام. وذلك قولك في التصدير: التزدير، وفي الفصد: الفزد، وفي أصدرت: أزدرت. وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها أن يكون عملهم من وجهٍ واحد، وليستعملوا ألسنتهم في ضربٍ واحد، إذ لم يصلوا إلى الإدغام"[٥٩] فاستعمل هنا التعليل نفسه ليكون العمل من وجه واحد إذ الزاي والصاد من أصوات الصفير والمخرج نفسه ولكن عندما يلتقي الصاد بالدال بعده يتخلى شيئا ما عن ارتفاع مؤخر اللسان للتفخيم في الصاد ليتحول الى الزاي التي هي من المخرج نفسه إلا أنها غير مفخمة ليقترب من وضع نطق الدال المباشرة بعده فهي غير مفخمة ينخفض اللسان لنطقها. فتظهر الصاد المشوبة بالزاي او الزاي الخالصة في بعض اللهجات.

/ ء ـَ ت / ت ـَ ص / د ـِـ ر / / ء ـَ ت / ت ـَ ز / د ـِـ ر /

/ ء ـَ ل / ف ـَ ص / د ـُ / / ء ـَ ل / ف ـَ ز / د ـُ /

/ ء ـَ ص/ د ـَ ر / ت ـُ / / ء ـَ ز/ د ـَ ر / ت ـُ /

خاتمة

لعل أهم نتائج هذا البحث أن العمل من وجه واحد والتخفف هو ما عرفه سيبويه وشيخه الخليل وأشار إليه من فكرة الجهد الأقل على نطاق لغوي، والكتاب مليء بأمثلة للتخفف من غير الإشارة بكلمة العمل من وجه واحد. ولكن الأمثلة المذكورة في هذا البحث تشرح بوضوح هذا المبدأ أو القانون وكيف أكده سيبويه في القضايا الصوتية. على الرغم من أن تعبير العمل من وجه واحد لم يصل الى مرحلة استعماله مصطلحًا في الكتاب ولكنه بدا بوضوح ممثلا لقانون يسري على مجموعة من القضايا التي تدخل في باب التخفف. ولم يعمم سيبويه فلا يصرح بأن العمل من وجه واحد أو اللجوء الى بذل جهد أقل غالب في العربية إنما ذكره في المواضع التي تبين له فيها أن هذه هي العلة في التغيرات التي ظهرت على المفردات مخالفة للمتوقع من الأحوال المختلفة التي كان أغلبها صوتيا.

نسأل الله أن نكون قد أحسنا تفسير هذه المواضع في الكتاب وإخراجها لتوثيق الفكرة للخليل وسيبويه وسبقهما الغرب في فكرة قانون الجهد الأقل في اللغة. وللحديث بقية في موضع أوسع إن شاء الله تعالى.

الهوامش والمصادر:

١. القرآن الكريم
٢. الجبوري. مي فاضل. القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠١.
٣. الجزري. أبو الحسين محمد بن الجزري الدمشقي ت ٨٣٣ هـ النشر في القراءات العشر، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٧٨.
٤. ابن جني. ابو الفتح عثمان بن جني ت ٣٩٢ هـ الهيئة المصرية للكتاب الطبعة الرابعة. القاهرة.
٥. الرضي الإستراباذي. ابن الحاجب رضي الدين الإستراباذي ٦٨٦ هـ شرح الشافية. تح. محمد الزفزاف واخرين مطبعة حجازي، القاهرة.
٦. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، ت ١٨٠ هـ الكتاب. تح. عبد السلام هارون، ط٢ ن مكتبة الخانجي – القاهرة ١٩٨٣.
٧. السيرافي. أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان – ت٣٦٨ هـ إدغام القراء، تح: د. محمد علي عبد الكريم الرديني – دار الشهاب باتنة الجزائر.
٨. السيرافي. أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان – ت٣٦٨ هـ. شرح كتاب سيبويه. تح: أحمد مهدلي وعلي سيد علي. دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٨.
٩. الصيغ. د. عبد العزيز الصيغ. الأصوات عند سيبويه في ضوء علم الأصوات الحديث. رسالة دكتوراه كلية الآداب – جامعة بغداد ١٩٩٩
١٠. العاني. د. سلمان العاني. التشكيل الصوتي في اللغة العربية ترجمة د. ياسر الملاح جدة ١٩٨٣.
١١. عمر. د. أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي عالم الكتب – مطابع سجل العرب، القاهرة ١٩٧٦.
١٢. المبرد. محمد بن يزيد المبرد ت ٢٨٥ هـ. المقتضب لأبي العباس تح. محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
١٣. القيسي. ابو محمد مكي بن ابي طالب القيسي ت ٤٣٧ هـ، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها . تح. محيي الدين رمضان دمشق ١٩٧٤.
١٤. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري ت ٧١١ هـ. لسان العرب. طبعة مصورة عن طبعة بولاق – مصر.
١٥. النعيمي. د. حسام سعيد النعيمي أصوات العربية بين التحول والثبات، دار الحكمة – الموصل – ١٩٨٩.
١٦. ابن يشو. جيلالي. مصطلحات المائلة ودلالاتها في الفكر الصوتي عند سيبويه. مجلة التراث العربي عدد ٩٩-١٠٠ السنة ٢٥ اتحاد الكتاب العرب. دمشق ١/يوليو ٢٠٠٥
17. Human behavior and the principle of least effort.
18. Zipf، George Kingsley
i. Oxford، England: Addison-Wesley Press. (1949)
19. The principle of least effort within the hierarchy of linguistic preferences: external evidence from English - Malgorzata Kul. Phd theses Adama Mickiewicza University Poznań 2007

١ الكتاب لسيبويه ٢٧٨/٣

2 Human behavior and the principle of least effort.Zipf, George Kingsley Oxford, England: Addison-Wesley Press. (1949)

٣ مبدأ أقل جهد في التسلسل الهرمي للتفضيلات اللغوية ٤٤ The principle of least effort within the hierarchy of linguistic preferences

٤ لسان العرب ج ي ء

٥ ينظر الكتاب ٥٤٨/٣ والمقتضب ١٥٨/١ وشرح الشافية للرضي ٣١/٣

٦ الكتاب ٢٧٨/٣

٧ نفسه ١/ ٢٠

٨ نفسه ١/ ٨٩

٩ الإنسان ٣١

١٠ الفرقان ٣٨

١١ الأعراف ٣٠

١٢ الكتاب ١/ ٨٩

١٣ شرح كتاب سيبويه، السيرافي تحقيق احمد مهدلي ورفيقه ٣٨٦/١

١٤ الكتاب ٢٧٨/٣

١٥ نفسه

١٦ نفسه

١٧ ينظر حول علل الإمالة كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ١٧٠- ١٧٦

١٨ دراسة الصوت اللغوي ١٥١

١٩ نفسه

٢٠ الكتاب ١٢٧/٤

٢١ المقتضب ٤٢/٣

٢٢ الكتاب ٣٥٩/١

٢٣ نفسه

٢٤ نفسه

٢٥ نفسه، ملاحظة: قد تكون عير نغر بالغين وجاء في الخصائص بالغين نغر ٣٣٨/٢

٢٦ الكتاب ١٠٧/٤-١٠٨

٢٧ نفسه ١٠١/٤

٢٨ نفسه ١٠٨/٤-١٠٩

٢٩ نفسه

٣٠ نفسه ٣٦٤/١

٣١ نفسه

٣٢ نفسه ١٢٨/١-١٢٩

٣٣ نفسه ٤٣٢/٤

٣٤ الأصوات عند سيبويه في ضوء علم اللغة الحديث ١٣٩

٣٥ النشر ٢١٥/١.

٣٦ التشكيل الصوتي ٤١.

٣٧ الكتاب ٣٦٦/١

٣٨ شرح كتاب سيبويه، السيرافي. تحقيق أحمد مهدلي وعلي سيد علي ٣/٥

٣٩ الكشف ٢٠٩/١.

٤٠ الكتاب ١٢٧/٤.

٤١ القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث ١٣٢

٤٢ الكتاب ٣٦٩/١

٤٣ نفسه ٣٦٤/١

٤٤ نفسه ١٤٦/٤

٤٥ نفسه ١٠٩/٤

٤٦ نفسه

٤٧ نفسه ٤٢٧/١

٤٨ نفسه ٣٦٥/٤

٤٩ نفسه ٤٦٧/٤

٥٠ نفسه

٥١ نفسه ٤٦١/١

٥٢ مصطلحات المماثلة ودلالاتها في الفكر الصوتي عند سيبويه مجلة التراث العربي جيلالي بن يشو ١/يوليو ٢٠٠٥ عدد ٩٩-١٠٠ ص٢٦٣

٥٣ نفسه

٥٤ نفسه

٥٥ نفسه ٤٥٨/١

٥٦ نفسه

٥٧ نفسه ٤٦١/١

٥٨ نفسه ٤٣٢/٤

٥٩ نفسه ٤/ ٤٧٨